

ورقة عمل بعنوان

قراءة في فكر الخدمة الاجتماعية*

رؤية تحليلية نقدية

للأستاذ الدكتور / محمد محمود مصطفى حميد

العميد الأسبق للمعهد العالي للخدمة الاجتماعية - القاهرة.

تمهيد

تعرض هذه القراءة بعضًا من الأفكار الخاصة بالخدمة الاجتماعية منذ ظهورها في الولايات المتحدة الأمريكية أواخر القرن التاسع عشر حتى تحولها إلى ممارسة عالمية أواخر القرن العشرين.

وهي أفكار ميزت الخدمة الاجتماعية توافر لها الأرضية المناسبة لتطبيقها ومنحت الخدمة الاجتماعية فرصة المساهمة في بناء المجتمع الأمريكي الجديد بالفكر والعقيدة الجديدة، كما ساهمت في وصول الممارسة المهنية إلى العالمية.

وهي ممارسة تعاملت مع قضايا ذات طبيعة دولية تخص دول وشعوب غير غربية، إلا أنها أفرزت ظهور قضايا جديدة تعاني منها هذه الشعوب وتحتاج إلى أفكار جديدة للتعامل مع هذه القضايا وما ترتب عليها من موضوعات تحتاج إلى حل من أجل أن تحتفظ الخدمة الاجتماعية بضرورتها المرتبطة بالزمان والمكان وتؤكد دورها في الحفاظ على حضارة الإنسان.

ورغم سعة وتعدد موضوعات هذه القراءة وأفكارها إلا أنني اخترت بعضًا منها لعرضها وفقًا لإحداثها التاريخية الزمانية والمكانية على النحو التالي:

- الخدمة الاجتماعية والمشروع السياسي للولايات المتحدة الأمريكية.
- الخدمة الاجتماعية وسلطة الأمر الواقع.

- الخدمة الاجتماعية والممارسة الدولية.
- الخدمة الاجتماعية وعولمة الثقافة الديمقراطية.
- استنتاجات ختامية.

الخدمة الاجتماعية والمشروع السياسي للولايات المتحدة الأمريكية

لم تقدم حركة التصنيع والتحضر السريع التي بدأت أحداثها مع أواخر القرن التاسع عشر داخل الولايات المتحدة الأمريكية عقيدة جديدة، وإنما أفرزت أزمة للمجتمع الأمريكي في محاولته بناء المجتمع الجديد بالفكر والعقيدة الجديدة.

وهي أزمة ارتبطت بمظاهر كان من بينها: حركة هجرة سريعة صوب المجتمع الأمريكي وانتقال كثير من المزارعين إلى المجتمع الأمريكي مع ظهور الأحياء المتخلفة المزدهمة التي لا تصلح لسكنى البشر وسوء أوضاعها الإنسانية، مشاكل العمال مع أصحاب العمل نتيجة لقلّة أجورهم وسوء ظروف العمل ومطالبتهم بتحسين أوضاعهم وزيادة أجورهم.. وكان لابد من إيجاد الحلول السريعة لهذه الأزمة والتعامل مع مظاهرها حماية للمجتمع الأمريكي الجديد وعقيدته الديمقراطية وهذا أثمر عن وجود حركات إصلاحية كان من بينها الخدمة الاجتماعية، بإسهام المصلحين الاجتماعيين في محاولة التعامل مع هؤلاء أصحاب هذه المشكلات.

وكان العمل المجتمعي من جانب الخدمة الاجتماعية له فلسفة وفق أفكار ومبادئ مع توافر العديد من المؤسسات التي تقدم خدماتها بشكل مباشر وهي فلسفة تقوم أفكارها على محاولة استحداث التكيف الاجتماعي لقاطني المناطق المتخلفة والمكتظة بالسكان باتباع أسلوبين: الأسلوب الديمقراطي وأسلوب المساعدة الذاتية، وهما أسلوبان ذات طبيعة اجتماعية ثقافية استخدمتا داخل مؤسسات الخدمة الذاتية والتعليم الغير رسمي مع من أضيروا ثقافياً وتعليمياً وصفة روبرت وودز Robert A. woods في مؤلفه The nation building Neighborhood أنه عمل مجتمعي لا يمثل غاية في حد ذاته بل وسيلة وفلسفة وحركة وسيكولوجية ووظيفة يشملها شيء واحد: جعل هذه الفئات شكلاً مقبولاً للمجتمع الجديد.

ومثلت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٧ ممارسة موجهة من الخدمة الاجتماعية للتعامل مع خيبة الأمل التي التصقت بالنظام الرأسمالي الأمريكي في محاولته جعل العالم حصناً للديمقراطية. وهو الشيء الذي جعل الخدمة الاجتماعية توجه ممارستها نحو هذا الهدف: التحول إلى المجتمع الديمقراطي والتقدم نحو المجتمع الإنساني باستخدام الطريقة الصحيحة للحياة الديمقراطية في المؤسسات التطوعية التي بدأ زيادة عددها بشكل ملحوظ وتعمل وفق هذا الهدف، وعلاج المشاكل الاجتماعية بفكر جديد ساهم في صناعته علماء المجتمع الأمريكي في المجالات الاجتماعية والسياسية والتربوية والخدمة الاجتماعية ومن أهمية هذه الأفكار أصبح هؤلاء العلماء

أساتذة مدرسين للخدمة الاجتماعية داخل العديد من مدارس الخدمة الاجتماعية التي بدأت تنتشر في المجتمع الأمريكي.

كتب جيمس تافت James H-Tufts 1923 عن تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية Education and training for social work أن الفكرة في ميدان الخدمة الاجتماعية ينبغي أن تظل دائماً في تحرك مستمر للاحتفاظ على الأقل لهذه المهنة بذهن متفتح إزاء مطالب الإنسانية المتغيرة وإزاء أفضل الحلول لمواجهتها.

ونيهت عالمة الخدمة الاجتماعية الأولى ماري ريتشموند Mary-Richmond في مؤلفها some social diagnosis 1920. next steps in social work، ومؤلفها

الرجوع في تفسير المشكلة الاجتماعية إلى التركيز على النظرية الاجتماعية أكثر من التركيز على النواحي الفسيولوجية. وهو رأي مثل ثورة علمية اجتماعية في محيط الخدمة الاجتماعية وليبدأ التعامل مع المشاكل الاجتماعية باعتبارها لها أسباب متعلقة بالبيئة الاجتماعية وتحقيق العدالة الاجتماعية. وهي أفكار أثمرت عن فهم الخدمة الاجتماعية على أنها وسيلة لتحقيق المجتمع الديمقراطي. وعلاج مشاكله وأن عمل الأخصائيين الاجتماعيين وفق فلسفة وحركة سيكولوجية لتحقيق المطالب الإنسانية وزيادة دعم المجتمع الديمقراطي. وبدأ تعليم الخدمة الاجتماعية وفق أفكار متجددة ونماذج علمية للتدخلات المجتمعية تستهدف المواطن الأمريكي والمجتمع الذي يعيش فيه وإيجاد حالة من التكيف المتبادل بينهما لاستمرار حيوية نظامه الديمقراطي.

وكان للأحداث التاريخية لسنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية الممثلة في فترة الكساد الاقتصادي التي بدأت أحداثها عام ١٩٢٩ وظهور حركة النازيين في ألمانيا ١٩٣٣ وسنوات الحرب نفسها ١٩٣٩-١٩٤٥، وما بعدها آثار خطيرة على شكل النظام الرأسمالي الأمريكي.

فقد أدى الكساد الاقتصادي Greet depression الذي بدأ أحداثه بانهيار سوق الأسهم الأمريكية وما اتبعه من آثار سلبية على المجتمع الأمريكي ونظامه الرأسمالي وكان من الضروري حماية هذا النظام وإعادة الاستقرار للمجتمع والتعامل مع آثاره السلبية وهذا ما أدى إلى زيادة تدخلات اقتصادية مؤسسة سياسية اجتماعية لمعالجة هذه الآثار وظهور برنامج الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت Franklin Delane Roosevelt حدث له أهمية وتأثير قوي في تقدم الخدمة الاجتماعية وممارستها الهادفة إلى الحفاظ على استقرار المجتمع الأمريكي حيث ساهمت في تنفيذ الأبعاد الاجتماعية لهذا البرنامج وفق تدخلات مؤسسية تستهدف علاج المشكلات الاجتماعية للمتضررين

من هذه الأزمة وتوفير الدعم لهم وتطوير برامج الرعاية الاجتماعية واتخاذ تدابير الضمان الاجتماعي بهدف العودة إلى الحياة الطبيعية.

وبالنسبة لحركة النازيين في ألمانيا فهي ارتبطت أيضاً بأحداث كانت تمثل تهديداً واضحاً للنظام الرأسمالي الأمريكي.

بدأت هذه الحركة بزعامة ادولف هتلر لحزب العمال الوطني الاشتراكي الألماني Adolf Hitler, Nationalsozialisch deutsche Arbeiterpartei* مدفوعاً بالأزمة الاقتصادية العالمية. في محاولة لتأسيس دولة (المملكة الثالثة) *Drittes Reich وهي دولة تستهدف خلق مجتمع جديد أطلق عليه مجتمع الشعب الوطني *Volksgemeinschaft تستهدف توحيد المجتمع الألماني واعتباره كياناً واحداً متجانساً.

وهو كيان يمثل تهديد مباشر للهوية القومية الرأسمالية للنظام الرأسمالي الأمريكي. فكان لابد لهذا النظام وما يملكه من أجهزة وأدوات أن تعمل من أجل الرأسمالية الأمريكية والإبقاء على عقيدتها الديمقراطية. وكان على مهنة الخدمة الاجتماعية كمهنة رأسمالية العمل الواعي المستمر من أجل الديمقراطية لا بوصفها شكلاً سياسياً للدولة الأمريكية وحسب ولكن بوصفها - أيضاً - أسلوب وطريقة للحياة يمكن تعليمه.

واستندت في عملها هذا على آراء علماء المجتمع الأمريكي في كافة التخصصات الاجتماعية والسياسية والتربوية وعلماء الخدمة الاجتماعية.

كتب عالم الاجتماع الأمريكي الشهير ادوارد س ليندلمان Edward C. Lindman 1939 عن جذور الثقافة الديمقراطية The Root, of democratic culture وأثرها في السلوك والممارسة أن الثقافة الديمقراطية تكمن في السلوك والممارسة وأن الحياة الديمقراطية لا بد أن تضرب بجذورها في تربية الشخصية الإنسانية وهي حياة تمنح التجربة الإنسانية نورانية وقوة وتبديد المخاوف وتجدد الآمال، و تبعد عن السلطة قدرتها على الطغيان والاستبداد.

- * باللغة الألمانية.
- * باللغة الألمانية.
- * باللغة الألمانية.

وكتبت عالمة السياسة الأمريكية ماري باركر فوليت Mary Barker Follett 1934 في شأن المجتمع الأمريكي الجديد العادل The New State، اعتبار الديمقراطية هي الوسيلة لبناء مجتمع جديد وهي أيضًا الوسيلة لتحقيق أقصى أشباع ممكن للفرد وتمكينه من إفراح المجال للمشاركة كعضو مسئول في المجتمع.

وكتب عالم التربية الأمريكي الشهير جون ديوي John Dewey 1935 عن قيمة الديمقراطية والتعليم في بناء الإنسان في المجتمع الديمقراطي في مؤلفه Democracy and Education أن إرساء الروح الفكرية والعقائدية للمجتمع الأمريكي وبناء الإنسان في المجتمع الديمقراطي وفقًا لطبيعته الإنسانية: الروح والجسم والعقل، وعدم الفصل بينهم طبقًا لمبدأ الواحدية Monism، واعتبار الإنسان وحده واحدة متكاملة لا يفصل بين جوانبها، وإن الإنسان في حاجة إلى المعرفة وإلى القيم الأخلاقية وإلى الضمير الأخلاقي، وهي حاجة تكتسب وتمنح الفرد الخبرة والتجربة والتفاعل الإيجابي مع بيئته وعناصرها، وتزوده أيضًا بالقدرة على قهر مشاكل الحياة الحالية والمستقبلية. كما أكد على أهمية التربية في تحقيق التكيف للفرد وصنع إنسان ديمقراطي اجتماعي صالح تتوافر فيه شروط التعليم والنمو والتطور المستمر.

كما كتب لويس تولي في مؤلفه اتجاهات في الخدمة الاجتماعية سنة ١٩٣٥ Lowis Towley, Trends in social work: أنه على جميع أنماط الأخصائيين الاجتماعيين وأجناسهم إدراك الحقيقة الديمقراطية في عملهم بأعظم قدر من الإدراك.

وهو الشيء الذي أدى بالخدمة الاجتماعية إلى ممارسة مجتمعية تستهدف ترسيخ فكرة المجتمع الديمقراطي وفكرة استخدام مؤسسات المجتمع لتعليم وممارسة الديمقراطية كأسلوب للحياة يمكن تعليمه للناس وممارسته في حياتهم اليومية.

وساند ذلك الأمر ارتفاعًا ملحوظًا في المؤلفات العلمية وإجلاء العملية التعليمية المنظمة لهذه المهنة على نطاق واسع في مجالات جديدة للممارسة مثل المجالات: التربوية والاجتماعية والديمقراطية، وأيضًا ساند ذلك العمل ظهور مفاهيم جديدة في ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس التحليلي استهدفت تفسير الإنسان والمجتمع، وأصبح للأخصائيين الاجتماعيين وظائف خاصة في المجال الواسع للرعاية الاجتماعية من أجل صنع الشخصية الإنسانية التي تتمتع بالصحة النفسية والعقلية والقادرة على التجاوب مع الحياة الديمقراطية والإبقاء عليها. هذا بخلاف دورها في علاج مشاكل الإنسان بالإضافة إلى العديد من الأدوار التي يسند لها المجتمع

للأخصائيين الاجتماعيين وهي أدوار تتغير بمرور الزمن وباختلاف التطور والثقافة للمجتمع الأمريكي، استهدفت دائماً العمل مع جميع الناس بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، والعمل في مجال العمل الاجتماعي وبذل الجهد في استبدال الخيوط المعيبة في نسيج المجتمع الديمقراطي والاتجاه نحو اصلاح البيئة وتحسين العلاقات. وأصبح عمل الأخصائيين الاجتماعيين عملاً متخصصاً وجزءاً من وظائف المؤسسات الاجتماعية.

ومثلت أيضاً - فترة الستينات من القرن العشرين مرحلة أخرى من مراحل الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية في المجتمع الأمريكي وهي مرحلة تمت بفكرة العمل المجتمعي الهادف إلى استقرار الأوضاع المجتمعية داخل المجتمع والحفاظ على العقيدة الديمقراطية.

بدأت هذه المرحلة بظهور مجموعة من النظريات الماركسية Marxist theories وهي نظريات لها خصائص تمثل مجموعة من الأفكار السوسيولوجية، تفسر الطبيعة الصراعية للمجتمع الرأسمالي تفسيراً يرى أنه ناتج عن القوى المسيطرة بين طبقتين: البروليتاريا الطبقة العاملة الأجيرة الفقيرة والبرجوازية الطبقة المالكة لأدوات الإنتاج، وهو صراع تراه النظريات الماركسية سينتهي بانتهيار النظام الرأسمالي ذاتياً، باعتبار أنه نظام بتركيبه الاجتماعي والقوى الاقتصادية المسيطرة عليه يحمل ذاتياً بذور انهياره، ومع انهياره سيتحول النظام الرأسمالي إلى نظام اشتراكي، ثم تتحول المجتمعات الرأسمالية إلى مجتمعات اشتراكية غير طبقية.

وهو ما أكد عليه كارل ماركس Karl Marx وزميله فريدريك انجلز Friedrich Engels في انتقادهما القوى الرأسمالية ودعوتهما إلى تعريف الشيوعية الحديثة، هذا بالإضافة إلى ما قامت عليه النظرية المادية التاريخية Historical Materialism من أفكار بأن التاريخ يتقدم من المراحل الشيوعية المبكرة عبر العصور المختلفة وصولاً إلى المجتمع الشيوعي، وكانت خطوة هذه النظرية أن أفكارها أثرت على العديد من الحركات السياسية والاجتماعية حول العالم.

وما يهمننا هنا هو نظرة الماركسية للخدمة الاجتماعية حيث أنها اعتبرت مهنة تمثل أداة الدولة لحكم الطبقات وأن وظيفتها هو تحقيق السيطرة الاجتماعية وصولاً إلى انتصار البرجوازية الرأسمالية، واعتبارها مهنة من ضمن أجهزة الدولة لتنفيذ سياسة الدولة في السيطرة على وظائف الرعاية الاجتماعية وعلاقات العمل وخاصة علاقات العامل بصاحب العمل وهي علاقة تستهدف إبقاء العامل على فقره لصالح القلة البرجوازية، وأن عملاء الخدمة الاجتماعية من الفقراء وأن نظرة الرأسمالية إليهم على أنهم المسئولون عن فقرهم وأنهم عاجزون عن تحقيق التكيف مع النظام

الرأسمالي لأمر خاصة بهم وليست بالنظام الرأسمالي، وأنه من صالح النظام الرأسمالي بقائهم فقراء أو افتقارهم لصالح قلة تمتلك وتتمتع بالامتيازات ومظاهر الحياة الفاخرة.

وكان على النظام الرأسمالي العمل من أجل الرأسمالية والحفاظ على الأيديولوجية والعقيدة الليبرالية. فبادرت الحكومة الأمريكية بوضع مبادرات مجتمعية تستهدف الفقراء وتمنع تورثهم - برنامج الحرب على الفقر ١٩٦٤ War on Poverty وساهمت الخدمة الاجتماعية في تنفيذ هذا البرنامج بالعمل المجتمعي مع المتأثرين بالمشكلة في محاولة لتخفيف حدتها والتعامل مع أعراضه وتعميق الرعاية الاجتماعية للفقراء وتلبية احتياجات المحرومين والمعرضين للخطر.

وبرز خلال هذه الفترة أيضًا مشكلة تهدد النظام الديمقراطي الأمريكي وهي مشكلة الزواج الملونين الأمريكيين الذين يواجهون داخل المجتمع الأمريكي مشاكل بشأن التمييز العنصري والفصل العنصري مما جعلهم يطالبون بحقوقهم وإنهاء التمييز والفصل العنصري نحوهم. وعمدت الخدمة الاجتماعية مساندة هذه الفئة من خلال تنظيمهم في حركة إصلاحية اجتماعية اطلق عليها حركة الحقوق المدنية Civil rights movement وذلك بالسماح للعصيان المدني السلمي بالظهور وتنظيم الملونين في جماعات ضغط تطالب بالمساواة وإنهاء الفصل والتمييز العنصري والقانوني نحوهم، واستخدام الحوار المجتمعي مع قيادات هذه الحركة. وكان من نتائج ذلك نجاح هذه الحركة واستحقاق هؤلاء الملونين لحقوقهم في المساواة ومنحهم حق التصويت الانتخابي وشغل المناصب السياسية.

وهو عمل عظيم فسرت الخدمة الاجتماعية على أنها لها دور مجتمعي في الحفاظ على استقرار المجتمع وإبراز الرأسمالية والمجتمع الأمريكي أمام العالم كمجتمع ديمقراطي يرفع جميع أفراد مواطنيه ويحقق لهم المساواة، وهذا انعكس على زيادة مساحة عمل الخدمة الاجتماعية وتحولت ممارستها في كثير من جوانبها إلى ممارسة مجتمعية لها أهداف تتعلق بالنظام الديمقراطي الرأسمالي وبدأ عملها في مجالات جديدة لتعمل مع انحراف المراهقين الصغار والجريمة والعنف ومشكلات المرأة والأسرة والتفكك الأسري والإدمان للمخدرات... الخ وبذلك أصبحت الخدمة الاجتماعية ضرورة مجتمعية وأصبح لممارستها رسالة إنسانية أثرت تأثيرًا كبيرًا على حركة التاريخ الاجتماعي للمجتمع الأمريكي الحديث، مستخدمي الفكر الذي يسبق الحركة والمساهمة في صنع الحضارة الإنسانية للمجتمع الأمريكي بتوفير شروط ومقومات صناعة هذه الحضارة.

الخدمة الاجتماعية وسلطة الأمر الواقع:

بدأت الخدمة الاجتماعية رسالتها المجتمعية داخل المجتمع الأمريكي كعمل مجتمعي له مضمون اجتماعي إنساني وفق تركيبة خاصة موجهة إلى فئات المهمشين من المجتمع باعتبارهم فئات تحتاج إلى خدمات الرعاية الاجتماعية يقفون قبل أو خلف خط البداية للنظام الرأسمالي.. ومن ثم تقدم لهم خدمات الرعاية باعتبارهم ضعفاء وبغرض الحماية الاجتماعية، وباعتبار أن النظام الرأسمالي نظام يري أفراداه ولا يقوم على الاستغلال أو الظلم الاجتماعي.

وكان هذا العمل يهدف إلى تغيير هؤلاء المهمشين فكرياً وعقائدياً طبقاً لثقافة الرأسمالية مع فرض مطالب هذا النظام على حياتهم. وهو نفس العمل الذي مارسته الخدمة الاجتماعية مع ظهور عقيدة جديدة ومخالفة لعقيدة النظام الرأسمالي عقب الحرب العالمية الثانية.

حين ظهرت الدعوة لعقيدة جديدة لها صبغة قومية وطابع اشتراكي أطلق عليها الاشتراكية الوطنية أو الدول القومية النازية Nazism فكان على الخدمة الاجتماعية حماية النظام الرأسمالي ومساندته في دعوته إلى أن يكون العالم أحادي القطب، مستخدمة ممارسة تقوم على فلسفة الفكر الديمقراطي وفق بعدين: الأثر الثقافي للمجتمع الأمريكي والظروف الحياتية لأفراده وذلك في مجالات أربعة: اتخاذ القرار - الضمان الاجتماعي - المساواة - التكافل الاجتماعي وهو عمل احتاج بذل الجهد من جانب الأخصائيين الاجتماعيين سائدة وجود تشريعات وسياسات اجتماعية ومؤسسات للممارسة.

واكتمل هذا العمل بوجود ميثاق أخلاقي للعاملين بالخدمة الاجتماعية، مثل للممارسة المهنية سلطة وفقاً للأوضاع وللواقع الذي يتعامل معه الأخصائيون الاجتماعيون كما مثل تأثيراً مباشراً على أعمالهم.

وهو ميثاق قام بإعدادده وبلورة صورته النهائية الجمعية الوطنية للأخصائيين الاجتماعيين في الولايات المتحدة الأمريكية. يقوم على مجموعة من القيم المهنية للخدمة الاجتماعية ارتبطت بالتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الأمريكي.

اعتبره "فريدريك ريمر" Frederic Reamer أنه يضم مجموعة من المستويات الأخلاقية للخدمة الاجتماعية Ethical standards in social work تنصب على قضايا أخلاقية للممارسة المؤسسية، كما يمثل اتفاقاً على عدد من المستويات التي تثار أثناء تقديم الخدمة، ويحدد بعض القضايا الخاصة بالكفاءة المهنية للأخصائيين الاجتماعيين. ومع وجود هذا الميثاق الأخلاقي أصبح للأخصائيين الاجتماعيين توجهات لممارساتهم المهنية وفق مجموعة من المبادئ والمعايير تهدف إلى

توجيه سلوكهم المهني، تشمل بعض المسؤوليات تجاه العملاء والمجتمع وتوضح آلية التطبيق والضوابط التي تعتبر ملزمة لأعمالهم وأفعالهم وتصرفاتهم في كافة المواقف الإنسانية والأخلاقية وفق أحكام عامة ونصوص مكتوبة.

وبالمراجعة الكاشفة لهذه الموضوعات بحاسة واستبصار اجتماعيين ندرك أن الخدمة الاجتماعية أصبحت مهنة تتجه بممارستها نحو الكمال والاكتمال مهنة تمثل النظام الأمريكي وعقيدته الرأسمالية تدخل ثقافة المجتمع في حساباتها وتعمل وفق الضرورة والحاجة الاجتماعية.

الخدمة الاجتماعية والممارسة الدولية:

مع اقتراب القرن العشرين من نهايته شهد العالم تحولات عميقة لها انعكاسات سلبية على الإنسان وبيئته والمجتمع العالمي، كان من بينها الإرهاب والعنف والهجرة الغير شرعية والجريمة المنظمة والاتجار في المخدرات والبشر، وافتقار العدالة والصراعات العرقية والاضطهاد الديني والسياسي والعنصرية وإهدار الموارد البيئة وإساءة استخدامها وما أحدثته الحروب من آثار سلبية أهمها الفقر.. وهي أمور مثلت أوضاعاً سيئة كان من الضروري التعامل معها لمنع تعاضدها مع النظرة إليها على أنها تمثل مشكلات كونية في طبيعتها وتختص بها مجتمعات وشعوب العالم الثالث والرابع وأطراف هذا العالم، تعجز بنفسها عن مواجهتها مما يتطلب تدخلاً دولياً للتعامل معها بقصد حماية المجتمع العالمي من آثارها المدمرة للإنسان وبيئته.

وكان من أشكال التدخل الدولي: الخدمة الاجتماعية الدولية International social work، كأحد أشكال الممارسة المهنية المعاصرة للخدمة الاجتماعية.

وهي ممارسة وصفها دين هيبورث Dean H. Hepwarth في مؤلفه Direct social work practice: theory and skills أنها ممارسة أبعد من تقديم الخدمات المباشرة وجهاً لوجه. وتتميز بأنها تعني بعمليات التخطيط للرعاية الاجتماعية وتنظيم المجتمع والإدارة في الخدمة الاجتماعية ورسم سياسات الرعاية الاجتماعية. وتستهدف تنمية المجتمع المحلي والعمل مع جماعات ومنظمات المجتمع المحلي والتخطيط وتطوير برامج الرعاية الاجتماعية وتقويمها والقيام بمهام الإدارة. وفسرها ويليام بروجمان William B. Bruggemann في مؤلفه The Practice of Macro social work 2002 أنها ممارسة على مستوى المجتمع العالمي الشامل للكرة الأرضية global

society أطلق عليها الخدمة الاجتماعية الدولية، كممارسة تعمل مع مشكلات عالمية مثل الفقر والحركات الاجتماعية العالمية والمنظمات العالمية الحكومية والغير حكومية وتختص بتنفيذ تعهدات الرعاية الاجتماعية الدولية داخل مجتمعات تعاني من مشكلات الفقر وويلات الحروب والجوع والمرض وهي مشكلات لا تختص بها دول الغرب غالبًا.

ووصفها أحمد السنهوري في مؤلفه موسوعة منهج الممارسة العامة المتقدمة للخدمة الاجتماعية و تحديات القرن الواحد والعشرين ٢٠٠٧م بأنها ممارسة على مستوى الوحدات الأكبر الأوسع نطاقًا بحيث تشمل كل دول العالم ويشرف عليها هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها العالمية الحكومية والغير حكومية بفكرة تحقيق القرية العالمية Global village كمكان يتحقق فيه العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسلام الدائم والبيئة التي تمكن الإنسان بأسباب الحياة اللائقة.

ووصف بروجمان المجتمعات التي تمارس فيها الخدمة الاجتماعية الدولية بأنها مجتمعات يعاني شعوبها من مشكلات الفقر والتخلف والجوع والمرض ومن آثار الحروب وهي أيضًا مجتمعات تسيء إلى مواردها الطبيعية وتعجز حكومات هذه الشعوب عن التعامل مع هذه المشكلات لقلة خبراتها ولنقص مواردها المالية مما يجعلها في حاجة إلى الجهود الدولية لمواجهة هذه المشكلات، وما تحدثه من آثار مؤثرة على البيئة. ووصف هذه الجهود بأنها جهود الأمم المتحدة ومنظماتها العالمية ومجالسها المتخصصة وبالتالي فهي ممارسة تربط الخدمة الاجتماعية بالمحيط السياسي والاجتماعي والاقتصادي الأوسع للمجتمع.

ويعمل الأخصائيون الاجتماعيون وفقًا للخدمة الاجتماعية الدولية داخل المجتمع العالمي الشامل للكرة الأرضية بوظيفة حددها أحمد السنهوري بوظيفة الاستشارة والخبرة ووصفها "الفريد كادوشن" Alfred Kadushin بأنهم استشاريون أو خبراء وينتسبون إلى منظمات وهيئات دولية ويعملون كاستشاريين في الخدمة الاجتماعية consultation يقدمون الخبرة والمعرفة الدولية في وظائف لها طبيعة سياسية خاصة بصنع السياسات وإعداد التشريعات وتنظيم المبادرات الاجتماعية وتقديم النصيحة الفنية لأشخاص أقل منهم من حيث الخبرة والمهارة والمعرفة الفنية ويعملون في إطار تلك المنظمات والهيئات الدولية.

وهي وظيفة وصفها روزالي امبروزينو Rosalie Ambrosino في مؤلفها Social work and social welfare 2001 بأنها وظيفة لها علاقة بالرفاهية الاجتماعية وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسلام الدائم والبيئة الصالحة مع تزويد الإنسان بأسباب الحياة اللائقة،

ويشرف على أعمالهم ويحدد واجباتهم الاتحاد الدولي للأخصائيين الاجتماعيين والجمعية الدولية لمدارس الخدمة الاجتماعية بالإضافة إلى مجلس تعليم الخدمة الاجتماعية بالولايات المتحدة الأمريكية.

أرى أن الخدمة الاجتماعية الدولية هي ممارسة معاصرة للخدمة الاجتماعية لها أساليب للتدخل الدولي الإنساني تشمل الرعاية عبر الحدود الوطنية تتشكل من خلال التعاون الدولي والأحداث السياسية وقد تستند على المعاهدات الدولية وليس على الممارسات المستقرة والمتسقة للشعوب التي تمارس فيها. وقد تولد عن هذه الممارسة مجموعة من الموضوعات التي تشكل وتبرز هوية هذه الممارسة؛ فهي:

- ممارسة تعتمد على مهارات منقولة دولياً، وتغيب عنها التدريب المستمر وأساليب تعليمها.
- كما أنها ممارسة فيها خلطاً مقصوداً أو غير مقصود بعمل المنظمات العالمية التي تتجاوز السيادة الوطنية ويمكن اختزالها في مستويين:
 - مستوى تشريعي دولي ومستوى تنفيذي دولي خاصة بالأنشطة الدولية.
- ممارسة تتأرجح بين المنظمات الدولية وأنشطة المؤسسات الدولية بفكرة التبادل للمعلومات والمناهج بين الدول والتعامل مع قضايا التعليم والتدريب وتبادل الطلاب والدارسين والبحوث المشتركة... الخ.

الخدمة الاجتماعية وعولة الثقافة الديمقراطية:

اختتم القرن العشرين في مناخ يُذكر بصورة مدهشة بالمناخ الذي احتضن الرأسمالية في أواخر القرن التاسع عشر أنه مناخ الخدمة الاجتماعية وما أحدثته من تحولات جذرية أسهمت في بناء المجتمع الأمريكي بفكر وعقيدة جديدة، أنه مناخ أنجب أيضاً - العولمة Globalization كمفهوم غربي احتضنته الرأسمالية الأمريكية فمع ظهور مؤلف العالم الأمريكي "يوشيرو فرانسيس فوكوياما" عن نهاية التاريخ والرجل الأخير Yoshihiro Francis Fukuyama, The End of History and The Last Man عرض فيه فوكوياما أفكار تشير إلى أن التاريخ انتهى بانتهاء التنافس الأيديولوجي وإعلان انتصار الأيديولوجية الرأسمالية الأمريكية وأن على الأيديولوجية المنتصرة التدخل لفرض هيمنتها ونفوذها على شعوب ودول العالم من أجل جعل الرأسمالية جزءاً من كيان هذه الدول، فلا وجود للأيديولوجيات المغلقة بعد انتهاء الحرب الباردة، ليبدأ تاريخ جديد والعولمة هي صانعة هذا التاريخ.

وبتحليل هذه الأفكار ندرك أنها أفكار مجردة تحمل تصور عقلي تمثل الخصائص الأساسية لمجتمعات ما بعد انتهاء التاريخ، وأفكار يمكن تعميمها على شعوب ودول العالم الطرفيه ودول عدم الانحياز. ومن هذه الأفكار اشتق مفهوم عولمة الخدمة الاجتماعية كمفهوم يركز على الصورة الذهنية للعولمة وأساليب انتشار ثقافتها كشعارات مثل عولمة الديمقراطية وعولمة الرأسمالية وعولمة الثقافة الديمقراطية، سيادة النمط الليبرالي الرأسمالي.

وهي ممارسة تبرز مفردات ثقافة العولمة وأساليب تحقيق مفرداتها في ممارسة تنتهي إلى تعميم ثقافة الديمقراطية الرأسمالية وسيادة مفردات هذه الثقافة داخل هذه المجتمعات ليتم إعادة تشكيل خصائص هذه المجتمعات وفق أساليب خاصة بالممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية وهي أساليب تعتمد على التعليم وأحداث التفاعل واستخدام تكنولوجيا الاتصالات الحديثة.. للوصول إلى ما يسمى بالدولة الكونية الواحدة، دولة تعتني بإحلال الديمقراطية وتأكيد حقوق الإنسان وتكريس القيم الفردية وتحرير العقل الإنساني من قيود التخلف والجهل والأساطير وأيضًا من وصايا التاريخ. أنها ممارسة تستهدف إنسان هذه المجتمعات وصنع إنسان القرية الكونية يستمتع بحريته الفردية ويشارك في مختلف ميادين الحياة الكونية الجديدة. وتهدف هذه الممارسة إحداث تحولات على الثقافات الأخرى المخالفة لثقافة الحضارة الغربية.

ويوجه عمل هذه الممارسة آراء العديد من علماء المجتمع وفلاسفته وفق اسلوبين للتعامل مع الثقافة وهما اسلوب: الهيمنة الثقافية Cultured Hegemony واسلوب التهجين الثقافي Culueal Hybridity.

وتقوم فكرة الهيمنة الثقافية للمفكر والفيلسوف الإيطالي انطونيو جرامشي Antonio Gramsci على تحقيق السيطرة للثقافة الرأسمالية على الثقافات الأخرى من خلال تشكيل المعتقدات والقيم لدعم السلطة الرأسمالية، وأن هذا هو دور المؤسسات الاجتماعية لنشر أفكار الرأسمالية والحفاظ على سيطرتها. وبالتالي، فإن مهنة الخدمة الاجتماعية تستطيع أن تقوم خلال عملها في المؤسسات الاجتماعية باستخدام وسائل ايديولوجية أو ثقافية الغرض منها إحداث تأثير قوي على قيم ومعايير وأفكار وتوقعات ورؤى وسلوكيات أفراد المجتمع، بفكرة رؤية الرأسمالية للعالم وترسيخ الهياكل الاجتماعية والاقتصادية التي تجسدها على أنها عادلة وشرعية ومعممة لصالح هؤلاء حتى لو كانت هذه الهياكل قد لا تفيد إلا الطبقة الرأسمالية.

وهي سيطرة لا تستخدم القوة، وإنما تستخدم أساليب سلمية متمثلة في الايديولوجيا والثقافة، بمعنى استخدام القوة الثقافية للايديولوجية الرأسمالية من خلال مؤسسات المجتمع في تحقيق الحكم بالموافقة أو الهيمنة الثقافية.

أما فكرة التهجين الثقافي فهي أفكار طورها كل من هو مي ك. بابا Hami K. Bhabha وبول جيلروي Paul Gellerwe وسيتوارت هول Stuart Hall وتقوم أفكارهم على تعريف التهجين الثقافي من خلال امتزاج العناصر الثقافية المختلفة مثل: الأفكار والقيم والأعراف واللغة والفنون. لتكوين أشكال ثقافية جديدة ومختلطة مما يتحدى مفهوم الثقافة النقية والثابتة، وتعكس الديناميكية المستمرة للتفاعل والانتشار الثقافي خاصة في ظل العولمة كسر مفهوم النقاء الثقافي. وهو كمفهوم مرتبط بالعولمة الرمزية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإعادة بناء الإطار المعنوي للهويات.

وهذا يعني أن للعولمة أساليب تحقق انفراد ثقافتها وهيمنتها أو زعاماتها للعالم بغرض اختفاء النظم والممارسات الغير ديموقراطية. وصفها المفكر البريطاني رولاند روبرتسون Roland Robertson بأنها اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش.

وفسرهما عالم الاجتماع البريطاني مالكوم واتر Malcolm water بأنها تمثل بقصد أو بدون قصد ادماج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد واختراق الحدود القومية وتذويب الزمان والمكان وتشكيل ذاتية الإنسان الآخر.

والخدمة الاجتماعية كمهنة رأسمالية كان عليها الترويج لأفكار العولمة وفق نموذج جديد لممارستها في مجتمعات وشعوب العالم الغير غربية، وهي ممارسة مصنوعة تحقق أهداف صنع هذا النموذج من أجلها، كما أنها ممارسة معقدة تتعامل مع الحاضر والمستقبل أكثر من الماضي، تهدف إلى إرساء القيم الثقافية والأخلاقية للحضارة الغربية الرأسمالية، بفكرة صنع تاريخ جديد وإنسان جديد تتجاوز في ممارستها ثقافة هذه الشعوب بفكرة أن ثقافة الغرب كما وصفها عالم الاجتماع الأمريكي بارسونز Talcott Prsons ثقافة التفرد والمهارة والموضوعية والتخصص عكس ثقافة الشعوب النامية المتخلفة فهي ثقافة الصحراء والماضي وقيم العصبية kinship والشمولية والمحلية وعدم التخصص.

وبالتالي، فينبغي تجاوز حضارة هذه الشعوب وما تمثله من موروثات اجتماعية وقيم اخلاقية وتعليمية وتراث حضاري.

ومن هنا ندرك مخاطر هذه الممارسة في محاولتها الهيمنة الثقافية للحضارة الغربية على حساب الثقافات المحلية والتراث الحضاري للشعوب القومية. وكان من نتائج ذلك ظهور نظريات نقدية للعولمة Critical theories Globalization.

كتب العالم الأمريكي كريستوفر باتلر Christopher Butler عن تسييس ثقافة الشعوب وآثارها معتبراً أن محاولة النظام الرأسمالي الغربي الأمريكي الوصول إلى عقيدة يعتبرها عقيدة الصواب السياسي ورؤية العالم من منظور واحد وتغليب عنصري العقلانية والنزعة الإنسانية، واستبدال الجذور الحضارية بنموذج بديل يرى العالم عالمهم الخاص، موضوع فيه ملاحظات هامة لأنه عالم يتطلب وعي أفراد المتجدد بمتغيرات الحياة والانسلاخ من الماضي والانخراط الشامل في الحاضر بقيمه الثقافية والحضارية، وإعداد إنسان يكون له استجابة حضارية للقفز على الثواب، يؤمن بمبدأ استقلال العقل وثوابته وبالمفاهيم الكبرى التي تقوم عليها الهوية والذات والواقع والأصالة وهذا لن يتم الا بتفكيك مجتمعه في محاولة لإلغاء ثوابته وثقافته الكبرى وإعادة تركيبه وفق مفاهيم جديدة ترتبط بنموذج الإنسان الجديد أو الإنسان الآخر. ومع إعادة تركيب المجتمع تظهر الخطورة الاجتماعية للتحولات الثقافية والاجتماعية التي نالت هذا الإنسان بهذا العمل المصنوع الذي لا يخدم سوى النزعات الرأسمالية. ويكرر "باتلر" أنها أعمال لن تحقق سوى النزاعات والأفكار العالمية بمعنى أنها لن تحقق سوى قدرًا من الاستقلال على المستوى العالمي لتصبح آليات فوق فوقية وتخلق عالم ثقافي مستقلاً بذاته، وهي ثقافة لن تظهر تلقائياً بقدر ما يتم صناعتها واتساع مجالاتها لتنتهي إلى ثقافة مركزية لها الهيمنة والسيطرة وتصبح معها باقي الثقافات في الأطراف.

أما أثر ذلك على إنسان هذه الثقافة فقد تنبأ الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche في وصفه لإنسان هذه القرية الكونية بأنه إنسان لم يعد يهتم إلا برفاهيته وأمنه فاقد إرادة القوة الاستقلالية ولن يحقق له هذا العالم الكوني الشامل السعادة والرفاهية، بقدر ما يسبب له حالة فيها تبديد وتدمير لذاته وإنسانيته وقدراته الإبداعية والأخلاقية.

وكان للعالم والفيلسوف الألماني جورج فيلهلم فريدريش هيجل Georg Wilhelmen Friedrich Hegel في فلسفته المثالية عن سير التاريخ والآثار المترتبة على نهاية التاريخ وبداية تاريخ جديد رأى في إنسان هذا الكون حيث يرى أن نهاية التاريخ يمثل مرحلة نهاية صراع طويل من أجل تحقيق قيم العقلانية والحرية ومع تحقيقها ينتهي التاريخ ليبدأ تاريخ آخر تتوهم فيه الايديولوجية الغربية أنها قادرة على تحقيق تطلعات البشر القصوى من خلال النظم السياسية والاجتماعية التي

تملكها وهي تمثل قطيعة للقيم المرجعية الكبرى ولن تغلج قيم العقلانية والحرية في تحقيق أهدافها لإنسان هذا التاريخ الجديد، أن فيها نزع إنسانية الإنسان ومع نزع هذه الإنسانية تنزع معها الأخلاقيات والقيم ويغلب قيم العلم والتكنولوجيا على الأخلاقيات والأديان لتنتهي هذه المرحلة حيث ما ابتدأت، وهنا الخطورة الكبرى لهذا الإنسان لأنه سيبحث عن الذوبان في بوتقة أخرى.

كما أن المفكر الأمريكي السياسي "هربرت ماركيز" Herbert Marcuse وصف إنسان القرية الكونية الشاملة بإعتبار أنه نتاج النظام الرأسمالي الجديد وهو نظام يخلق إنسان أحادي البعد one dimensional man فاقده لقدرته على التفكير الإبداعي والنقدي مفرغ من مضمونه التقليدي مهية للسيطرة الاجتماعية، غير قادر على رؤية أبعاد أخرى بوجوده في ظل وجوده في أنظمة قائمة لا تمكنه من التغيير أو المقاومة. ويرى ماركيز أن هذا يمثل حالة من الانغلاق الاجتماعي للإنسان تهينه ليصبح فريسة للقلق والخوف وقد تدفع به إلى الانزواء بعيداً عن وعيه الذاتي، بعيداً عن خريطة الحضارة الإنسانية ليندفع وراء الخرافات والأساطير والجهل ليؤمن بهم ويعزل نفسه عن واقعة، أو ينحرف نحو أفكار لا يملك قدرة على استيعابها ليظل مبهوراً بها ليس له دور في صنعها.

أنها أمور تتوهم الحضارة الغربية أن تحفظ لها بقائها وانتشار هيمنتها على العالم. ومشاركة الخدمة الاجتماعية كجهاز أيديولوجي للحضارة الغربية وللنظام الرأسمالي بهذا العمل فيه اساءة كبيرة لهذه المهنة التي ارتبطت منذ نشأتها بالحضارة الإنسانية وبإنسان تمنع عنه الضرر وتوفر له خدمات الرعاية التي تحقق إنسانية لا للسيطرة عليه وعزله عن واقعه.

أن تاريخ الخدمة الاجتماعية الذي احتضن الرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية يكرر نفسه، فقد بدأت الخدمة الاجتماعية ممارستها داخل المجتمع الأمريكي مستندة على أفكار ونصوص جاهزة لممارستها هي نتاج العقيدة الرأسمالية للولايات المتحدة الأمريكية، وعمدت في ممارستها على فرض هذه العقيدة على أفراد المجتمع الأمريكي المهمشين والفقراء ويهدف إخضاعهم للثقافة الرأسمالية. أنه الشيء نفسه الذي تفعله الخدمة الاجتماعية الرأسمالية الأمريكية في أوائل القرن الواحد والعشرون باحتضانها أفكار العولمة الرأسمالية ومحاولة فرض سطوتها وفلسفتها وثقافتها على الشعوب المهمشة ومواطنيه الفقراء بفكرة الوصول إلى مجتمع عالمي أنه تسارع حديث لظاهرة قديمة مستمرة معروف المسئول عنها وعن تسارعها وعن أهدافها ولن تحقق أهدافها بحسب قول الكاتب والشاعر الإنجليزي روديارد كيبلنج Rudyard Kipling في عبارته الشهيرة الشرق شرق والغرب

غرب والشرق والغرب لا يلتقيان East is east and west is west and never the twain shall meet.

وعلى مهنة الخدمة الاجتماعية أن تبادر باستدراك ذلك وإلا فإن ممارستها المهنية بهذا الفكر العالمي ترشحها في النهاية إلى الدخول في دوامة رد الفعل باعتبار أن الفعل غير مناسب ويمثل عملاً سيادياً.

استخلاصات ختامية:

يتوقع العالم الانتقال لنظام عالمي جديد، يركز على أسس وشروط مغايرة لتلك التي تم إقرارها بعد انتهاء الحرب الباردة وإعلان انتصار الايديولوجية الأمريكية الرأسمالية، وهي ايديولوجية أوضحت ممارستها أنها ذات طابع عنصري تفوقي.

وهو توقع ناتج عن تحديات تواجهها الايديولوجية الرأسمالية، ستؤثر على قدرتها في الحفاظ على مكانتها كقوة عظمى قادرة على الانفراد بإدارة العالم أو التأثير على كثير من البلدان في اتجاه تعزيز نفوذها الدولي، وسينتج عن هذه التحديات صعود قوي جديدة وتغيير في قواعد المعاملة الدولية وإرساء دعائم منظومة دولية جديدة، ليس فيها طرف مهيمن على أطراف عديدة. وهذا بالطبع سيحتاج إلى تفكيك النفوذ ورسم أخرى جديدة ويتبعها بالتأكيد تغيير في قواعد المعاملة الدولية.

ويبقى التساؤل مطروحاً وبقوة هل أعدت الخدمة الاجتماعية لهذا لنظام العالمي الجديد بعد أن ربطت ممارستها المعولمة بالنموذج الأمريكي ذات النزعة الايديولوجية الرأسمالية.

أن الخدمة الاجتماعية يحتاج إلى رؤية نقدية بناءة تفتح حواراً حول مستقبل ممارستها في ظل النظام العالمي الجديد، حواراً يؤسس المنظرين للخدمة الاجتماعية رؤية بعيدة عن الرؤية المتحكمة في ممارستها بفكرة العولمة وثقافتها وأهدافها بعد أن أفرزت هذه الممارسة المعولمة للخدمة الاجتماعية تشويه للعالمية التي تطمح إليها الإنسانية. رؤية شمولية لا تنحرف عن كينونة الخدمة الاجتماعية ولا تبعدها عن هويتها، رؤية تستند إلى واقع أمبريقي بمنطق الواقعية والتنبؤ بالدور المجتمعي المطلوب وفي اتجاه الحفاظ للشعوب على حضارتها الإنسانية وتحقيق صورة الإنسان العالمي كتجسيد لطموحات المجتمع الدولي في ظل التنظيم العالمي الجديد.

أتمنى في ظل النظام العالمي الجديد المتوقع أن يكون للخدمة الاجتماعية دوراً عالمياً يؤهلها لتكون طرفاً في معادلة التحول القادم، تفادياً أن تصبح متأثرة فقط بما سيجري.